التاريخ والأدب

كارثة دمشق

للأستاذ علي الطنطاوي

[يا أيها العرب : إن أحببتم دمشق ، فافهموا هذا الفصل بعقول جيوبكم ، بعد أن تفهموه بعقول رؤسكم ، واعلموا أن القليل إلى القليل كثير ، والله يجزي والناس تشكر ، والساعي في الخير كفاعل الخير ، والصديق عند الضيق .]

— ١ —

عادت إلينا الرسالة بعد طول الغياب فيا أهلاً بها نجيّة النفس وسميرة الفؤاد، ويا مرحباً بعمادها — ويا ليتها تعود معها تلك العهود ، حين كانت أقلامنا تجرى فيها طليقة من القيود — لم تصبغ بالهم ولم تجعل مدادها من سواد البارود . . . ويا ليت أني حين أكتب اليوم أقدر على اجتناب أحاديث الكوارث والهموم ، فلا أقص على القراء أخبارها ، وأصف آثارها ، فأزيدهم كرباً على كربهم . وحسب الرجل اليوم همه ، وما بقى إلا وفيه ما يغمه ... وما تجمل بنا الشكوى، لو لا أنها إلى أخ حبيب . ومن للأخ في الضيق غير أخيه ؟ ومن للشام إلا مصر والعراق ؟ ومن لمصر إلا العراق والشام ، ومن تجمعه بها أخوة الجنس واللسان والإسلام ؟ وكيف السكوت وما حل بدمشق ينطق بوصف هوله الجماد لو كان ينطق الجماد ، وتنبض له أعين الصخر، لو بكى الصخر لذي مصاب ...

— ٢ —

كنا نذكر الحرب التي مضت وما حملت إلينا من الجوع والخوف والنقص في الأموال والأنفس والثمرات ، وكيف كان الشعب يموت جوعاً لأن التجار الفجار قد احتكروا خبزه ، فنهب من الناس من ذهب ، لتملئ صناديق المحتكرين بالذهب ، ثم لا يجد الأموات قبراً لأن الحرب لم تبق من الرجال من يقدر على حفر قبر . نذكر هذا كله ثم ننظر إلى هذه الحرب فنراها سلاماً علينا وأمناً لم نجع فيها ولم نعر ، ولم تنل منا منالاً الهم إلا ما نالت بأظافر التجار وأنيابهم ، إذ جعلوا الواحد من ثمن الأشياء عشراً ، وربما بلغوا ببعض الأثمان مائة ضعف : وما قلت السلع ولا تبدلت ، ولكنه الطمع والجشع ورقة الدين وضعف الخلق ؛ واستمر سير الحرب ، وانتشرت نارها ونحن لا نعرف مكانها إلا على السماع ، وجعلت تطيف بلهيبها بنا ، وتدنو منا ، فامتد لسانها إلى مصر فجزعنا وأشفقنا وكنا مع المصريين بقلوبنا وألسنتنا، وما نملك لنمرى إلا الألسنة والقلوب، ثم دنت منا فبلغ لهيبها العراق، فأقبلنا على العراق بقلوبنا وما جانبت مصر ولا تولت عنها تلك القلوب ، ثم أصبحنا ذات يوم على صوت الراد (الراديو) يقول إن الحرب في (الكسوة) على أبواب دمشق ، فنظرنا شطر القبلة فلم نجد على جبل (المانع) أثراً لحرب ، فكذبنا وأنكرنا ، فقال العارفون إن المعركة وراء هذه الجبال . وأكدوا ذلك ولكنا لبثنا مكذبين ، فلم تكن إلا ليال حتى بدت في الأفق القبلي من دمشق ومضات للمدافع وسمعنا أصواتها فصدقنا ما قال الرادّ ، وأيقنا أن قد بلغتنا الحرب ، ولكنا لم نكبرها ولم يصبنا الذعر منها ، إذ لم تمسسنا نارها ، ولا أحسسنا أوارها ، ثم دنت منا النار ، وانطلقت المدافع الثقال من قلاع (المزة) و (قاسيون) ، فاهتزت لها دمشق ولكن أفئدة أهلها لم تهتز ، فانطلقوا يؤمون (المهاجرين) يشرفون منها على المعركة وهي دانية منهم وأصواتها في آذانهم ، وشظاياها عن أيمانهم وشمائلهم . وإنهم لفي إشرافهم هذا ، واجتماعهم في المهاجرين ، عشية يوم الجمعة ٢٠ يونية ، يتحدثون في عرض الجيش المهاجم على المقاتلين في دمشق كفّ أذاهم عنها ، وتركها (مكشوفة) كيلا تعبث بمحاسنها أيدي الحرب ، فتجعل عامرها يباباً ، وقصورها تلالا ؛ وكيف أبى المقاتلون فعرضوا دمشق بأبدانهم للأذى ؛ وما يعنيهم أذاها ، ولا تهدم لهم (إذا هي تخربت) دار يفجعون في زوج ولا ولد ؛ وكانت المعركة مشتدة هذه العشية ، وكان الناس مزدحمين ينظرون بجهنم قد فتحت أبوابها وإذا القنابل قد ضلت طريقها فإذا هي تساقط على (المهاجرين) أجمل أحياء دمشق وأبهاها ، فطار الفزع بألباب الناس ، وكانت ساعة الهول التي يستعاذ بالله منها ، وصار الناس كالهم يوم القيامة ، حين يجد المرء ما يشغله عن أخيه وزوجه وبنيه ؛ فخلفوا الدور مفتحة الأبواب ، واستلوا منافذ الطرق ، مهاجرين إلى (الشام)(١) يعتصمون بالأموي ، ويقيمون في جواره بعيدين عن مواقع القنابل التي تحمل الموت والدمار . فلا ترى على الطرق

(١) الشام في الأصل ما يسمى سورية وفي عرف الدمشقيين دمشق . والقسم القديم منها على التخصيص دون الصالحية والميدان

إلا الناس مسرعين بوجوه شاحبة، وأعضاء من الخوف مضطربة. وربما خرجت المصلة المخدرة مكشوفة الوجه، والمدافع تنطلق، والقنابل تتتالى وتتعاقب، كالنيث إذا انهمر . . . وكان أمرٌ لا يوصف!

— ٣ —

ثم انسحب جيش، ودخل دمشق جيش، وأعلن استقلال سورية، وانتهت الحرب، فتنفس الناس الصعداء، وتذوقوا لذة الأمن بعد الخوف، ومن كان لجأ من الخوف إلى دمشق من سكان القرى المرزأة المروعة الذين أكلت الحرب دورهم وغلاتهم سكان: (الكسوة، والباردة، والأشرفية، وصحنايا، وسبنية، وسبينات، والقدم، وغيرها) من قرى الغوطة التي كانت تنعم بالأنس والدعة في ظلال الأشجار، فصارت صحراء قاحلة، لا شجرة فيها ولا دار. وديرا يا قرية العنب الديراني الذي تباهي دمشق المدن بلونه وطعمه ونبل حبته وجلال عناقيده واتساع كرومه؛ وجارتها المزة (جيزة دمشق) وأجمل ضواحيها، استعدوا للرحيل إلى دورهم ومساكنهم ... يحسب المساكين أنها لا تزال لهم مساكن، ما دروا أن من هذه القرى ما لم يبق منه إلا أطلال ورسوم ... وانطلق الدمشقيون الذين واسوهم في مصيبتهم، وآووهم في منازلهم يودعونهم بالحفلات والولائم ... فاشتعلت الأحياء التي تحف بالأموي نوراً، وابتسمت سروراً: (القيمرية والكلاسة، وباب السلام، وباب البريد، وسيدي عامود)، حتى ليحسبها الرائي ترقص طرباً، وما بها لو حققت من طرب. وفيم الطرب؟ ولكن مواساة المنكوبين، وتطييباً لقلوبهم، وإظهاراً للرضا بانطفاء نار الحرب، وحمداً لله على ما لطف وسلم، فكانت ليلة الأربعاء (٢٥ يونية)، كأنها من ليالي الأعياد ...

وكان أسبق الأحياء في هذا المضمار (الكلاسة)، هذا الحي الرابض بين الحرمين الأقدسين: مسجد بني أمية الجامع، ومدفن البطل صلاح الدين (آخذ الدنيا ومعطيها)، كأنما سرى في أهله روح من روح صلاح الدين، فظهرت على أيدي أهله مدهشات الشهامة والكرم، حتى لقد آوى رجل منهم واحد سبع أسر في داره، وأولاهم من بشاشة وجهه وفضل ماله ومسكنه ما لا يعتد إلى أكثر منه جهد مثله ...

— ٤ —

نام الناس هذه الليلة التي حسبوها من ليالي الأعياد آمنين لا يخافون الحرب وقد انطفأت نارها، ينتظرون بآمالهم الغد القريب ليحمل إليهم السلام والرخاء. فلما كانت الساعة الرابعة (إلا ربعاً)، ومآذن دمشق المائة والسبعون تصدح (بالتراجيم) الأخيرة، ولم يبق دون التفجر إلا قليل، والليل ساكن سكون السحر الفاتن العميق ... وإذا رجة لا توصف قلقلت البيوت فذهبت بها وجاءت كأنها الزلزال العظيم، لولا أنها اقترنت بصوت أفاق منه الناس، وإن أجلادهم ليضطرب في فراشه اضطرابه السمكة خرجت من الماء، ثم أعقبتها رجتان، ثم جاءت رجة أنست الناس الأوليات فخاروا وذهبت الفاجأة بألباب ذوي اللب منهم وخرجوا من بيوتهم يتراكضون، وما لأحدهم وجهة ولا مقصد ... ثم انجلت الحال، فإذا هي طيارة لا يدري أحد موردها ولا مصدرها ... ألقت قنبلتها الأولى على أكواخ في مزرعة عند (جسر تورا) فيها ثلاث أسر في كل أسرة منها أكثر من عشرة أشخاص، فأبادت الجميع، وما ثمة مطار ولا ثكنة ولا شيء مما يصح أن يكون لقنابل الطائرات هدفاً؛ وألقت الثانية على (باب السلام) من أسفل (الجزيرة) فهدمت أربع عشرة داراً (لا شقة)، والثالثة وقعت على الكلاسة فأبادت الحي كله؛ ولو زاحت عن موقعها عشرة أمتار من هنا أو هناك، لطارت بأذنة العروس أو بقبر صلاح الدين، ورمت الأخيرة في الحي الجديد في (سيدي عامود)، الذي لم يكد يبنى بعد خرابه، حتى حمل إليه الدمار في الثانية من حمله في الأولى، وما في كل ما دمرت الطائرة ولا في جواره ولا قريباً منه شيء من المصانع والمواقع العسكرية ألبتة

وقع ذلك كله في أقل من خمسين ثانية، لم يعتد إلا ريثما اجتازت الطيارة من أول المدينة القديمة إلى آخرها، ثم توارت في الظلام كما خرجت من الظلام ...

— ٥ —

أسرعت مع من أسرع إلى مطرح القنابل وبدأت من (سيدي عامود) فإذا القنبلة قد سقطت في وسط الطريق في ميدان صغير يتقاطع فيه شارعان، فاحتفرت حفرة هائلة، وتطايرت قطعها وشظاياها، فأصابت أربع عمارات جديدة مترعة بالسلع التجارية القيمة فضعضعتها وهدت أركانها وأدخلت بعضها في بعض، وأبادت كل ما كان فيها من سلعة ومتاع، وأفقرت أسراً الله أعلم بعددها، وحطمت القنبلة كل زجاج الحي،

وقتلت رجلاً وامرأتين ـ وذهبت من بعد إلى (الكلاسة) فإذا هذا الحى الآمن بأمان المسجد ، القائم فى حى صلاح الدين ، قد غدا تلاً واحداً كالقبر العظيم كأنه لم يكن منذ ساعات يبسم للحياة ويبسم له المجد ، وكأنه لم يكن منزل الكرام الصيد الحسنين ... وكان للناس مزدحمين يعملون مساحيهم فى هذه الأنقاض فيكشفون عما تنفطر لهوله القلوب ، ويلقون من غرائب الحياة ومآسيها ما يخجل أكبر القصاص ويدقمه إلى حطم القلب ، والنساء يولولن يسألن عن زوج ضائع أو ولد مفقود ويقمن على أرجل الكشافة والفعلة وأصحاب المساحى يسألنهم الإسراع بالكشف عمن افتقدن من أقربائهن ، ومنهن من تقبل على التراب تنبش بيديها وهى تعد الدقائق والثوانى تتصور الموت جاثماً على صدر من تحب ؛ فإذا رأت أنها لم تصل إلى شىء وهالها الأمر ، جن جنونها فأقبلت تلطم وجهها وتنشد شعرها . والرجال ... لم يكن الرجال بأجلد من النساء

وكيف يتجلد الرجل ويصبر وحبيبه تحت الأنقاض وكلما مرت لحظة دنا من الموت باعاً ، كيف يصبر وهو يظن أن فى يده حياته ، وكيف يعيش من بعده إذا توهم أنه هو الذى قتله بتقاعسه عن إسعاده ؟

إن الذى رأيت فى الكلاسة من الفواجع والمآسى لا يقدر على وصفه لسان ولا قلم ، والحفارون خلال ذلك يخرجون جثة من هنا وجثة من هناك ، فينادون عليها ليعرفها من يعرفها . ولقد وجدوا جثثاً مشوهة لم يعرف أصحابها ، ووجدوا ساعداً مبتوراً لم يدر من صاحبه ... وهذه امرأة حديثها عجب من العجب ؛ فقد كانت تنام بين ولديها فلما سمعت الرجفة نهضت وكل عرق منها يرتجف كأنه ريشة فى مهب الريح فوجدت الظلام من حولها دامساً طامساً ، فمدت يديها تتلمس ولديها فوقعت على الرضيع ولم تقع على الآخر ، فتحسست مكانه فإذا يدها على جذع من الخشب وسط تراب منهار ، فنهضت كالمجنونة فاصطدم رأسها بشىء قريب حسبته السقف فازداد جنونها ولم تدر أهى فى يقظة أم فى حلم ، فأخذت بيد ابنتها التى ما ينقطع بكاؤها وقبعت فى فراغ وجدته . وكان ينتهى إلى سمعها صدى طرقات بعيدة كأنها آتية من قرار سبع آبار ، ثم رأت حين ألفت عيناها الظلمة ، كأنما هى فى مغارة من مغارات الجن لا باب لها ولا كوة ، ثم أنها من ضيقها كالقفص ، فأقبلت تضرب بيديها ورأسها ، والتراب يتساقط عليها حتى وجدت بصيصاً من النور ، وازداد صوت الطرق وضوحاً فى أذنيها ، وتسرب إليها الهواء بعد أن كادت تختنق ، فأغمى عليها ولم تفق إلا فى المستشفى ورضيعها إلى جنبها ، وولدها الآخر وزوجها تحت الأنقاض

وهذا هو الأستاذ المصور (أ ...) يفتش عن ولده الحبيب ، وقد جحظت عيناه من الذعر ، وتبدلت حاله ، وصار لون خديه كقشرة الليمون ، وهو يستحث الحفارين ، ويضرب بيديه التراب ... هنا ابنه ، ولده الحبيب ! يا أيها الآباء ! جاء به من المهاجرين يوم الروع ليودعه المكان الآمن عند جدار المسجد ، عند قبر صلاح الدين . ومرت ثلاث ساعات كانت عليه وعلى الشاهدين كأنها ثلاثة عصور ؛ ثم انكشف الردم عن نصف غرفة وإذا الولد فيها وهو حى ، لكن ذراعه تحت الردم ، وهو يصرخ : أبى ، ارفعنى ، ارفعنى يا أبى . فلما سمع الأب صوته وثب إليه يعانقه وهو يبكى ، وكل عين ثمة تبكى ... ولكن كيف يرفعه وفوق ذراعه كل تراب ؟ وأقبلوا ينقلون التراب والولد يصيح صياحاً جعل أباه يفكر بإنقاذه ولو بقطع يده ، أتسمع ؟ وإنهم لفى ذلك وإذا بجذع يهوى على رأس الصبى فيقتله حالاً

وها هنا طفل رضيع يجدونه حياً يمتص من ثدى أمه الميتة . حقائق لو كانت خيالاً لكانت من أغرب الخيال

ولما انصرفت من (الكلاسة) أخذ بيدى صديق لى وأنا لا أبصر من الأسى والحزن طريقى فقال : إن ما رأيت ليس بشىء . إن أحببت أن تنظر إلى أفظع عدوان وأشق ضحية وأروع مشهد ، فتعال معى إلى باب السلام ، فلقد أخرج منه إلى الآن (الضحى) سبعة وعشرون قتيلاً ، فنترت يدى منه ولم أجب !

— ٦ —

وانجلت الغارة عن ثمانية وعشرين منزلاً أضحت خرائب وتلالاً وواحد وسبعين قتيلاً . ثلاثة أرباعهم من النساء والأطفال ، ونحو من خمسين جريحاً لا يكاد يعيش منهم أحد ، ما قتل هؤلاء